الفصل الثالث

# من خيبر إلى تيماء

عندما كتب في عام ١٩١٧م عن موضوع رحلات غوارماني في شمال الجزيرة العربية خلال عام ١٨٦٤م، قال دوجلاس كاروثرز إن المنطقة الواقعة مباشرة بين تيماء وخيبر لم يعبرها أحد بالعرض أبداً من قبل، ولم يرها غير داوتي منذ ذلك الحين. وهذه بالتحديد هي المنطقة التي أنا على وشك أن أقوم باكتشافها الآن، على الرغم من أنني كنت على دراية كاملة بحقيقة أنه، منذ الحرب العالمية الثانية، قام كثير من الأمريكان بزيارة معظم المراكز الرئيسة في المنطقة بحثاً عن الزيت أو المعادن الأخرى والمياه.

وفي أثناء ذلك، كان من الواضح أنهم قد غطوا كثيراً من المنطقة الداخلية بطريقتهم السريعة والفعالة، وهي تنفيذ عملهم دون تجشم عناء تسليم الأجيال القادمة كلها أي سجل عن تفاصيل رحلاتهم. وإذا لم أكن أعرف ذلك مقدماً، فإنني قد وجدت كثيراً من دلائل مرورهم في نقاط مختلفة على دربي. بيد أنه يجوز للمرء أن يلومهم بصورة عادلة، مثلما يجوز أيضاً انتقاد غوارماني في هذه المنطقة على وجه الخصوص، لأنانيتهم وتمتعهم وحدهم بفرص

عظيمة للسفر والترحال في منطقة مجهولة، أو معروفة قليلاً، بدون الشعور بمسؤولية المكتشف في تدوين تفاصيل ملاحظاته على الأقل لخط مساره وأسماء الأماكن التي زارها أو رآها. وفي حدود ما لدي من معلومات قد تكون هذه الحقائق مدّونة في سجلات في بعض الخزائن أو الصناديق التي لا يمكن الوصول إليها في أحد المكاتب الحكومية أو التجارية، بيد أنني لن أتردد في إعلان، بقدر ما يتصل ذلك الأمر بالمنطقة التي سوف يرد وصفها، أن الرغبة الطبيعية لدى البشر في معرفة شيء ما عن الأماكن والمناطق النائية والبعيدة من عالمهم لم يشبعها بشكل ما أي ممن سبقني باستثناء، طبعاً، داوتي. إن رحلاته وجولاته يمكن دائماً تتبعها واقتفاء أثرها دونما أدنى صعوبة لأي شخص يزور المنطقة التي تجوّل فيها.

في صباح ٢٩ ديسمبر ١٩٥٠م كان كل شيء يضج بالحركة والنشاط في مقر إقامتنا بحي شريف، وبأعجوبة كان كل شيء جاهزاً للانطلاق في التاسعة والنصف صباحاً. حتى الأمير وأتباعه كانوا قد انضموا إلينا، وكنا نحتسي قهوتنا أثناء تحميل السيارات. وقرروا أن يسافروا في اللوري، بينما رافقني دليلي الجديد، محماس، في سيارة اللاندروفر التي تجر مقطورة تحمل أحمالاً ثقيلة. وسرنا مرة أخرى على طريق المدينة مسافة ميلين حتى نقطة عدنا منها مرة أخرى على طول الضفة اليسرى لوادي سلامة هذه

القناة تهبط من الحرّة المرتفعة في ما جاور جبل الأبيض، وتلتقي هنا بقناة التصريف من منحدرات عطوة، وفي المنطقة السفلى تمر من خلال قرية أم كدا في حين التزمنا يسارها بشدة حتى نتفادى غابة شجر السلم الكثيفة التي تحدد مجراها. وكان السير سهلاً يسيراً بدرجة كافية خارج الحرّة الوعرة التي يجري فيها الوادي إلى أن يخرج منها في بستان نخيل يحمل اسمه، وهو تابع لأم كدا.

وبعد ذلك بفترة وجيزة مررنا على بئر وحقول الذرة في بئر عبداللطيف، وبعد ذلك فوراً تقريباً نزلنا في المنحدر السهل إلى قرية الدكاك والآن نمر بين نخيل طيران وسلالم وعبر نخيل الدواعي ووجدة وأتينا إلى الوادي الرئيس قبل التقائه مباشرة مع وادي الغرس، وكان عرض الجدول المائي خمسين ياردة، ويجري بقوة وبعمق نسبياً، وقد كان الدليل ماهراً في إرشاده حيث عبرناه في خط دائري دونما صعوبة تذكر.

ووصلنا إلى النخيل في قاع واد يسمى مَعْناً، ينحدر إلى المجمعة (الملتقى) بين جبال دهام والأحفرة. وكان اتجاهنا الآن نحو رأس الوادي مروراً بالعين في منتصف الطريق، حيث توقفنا هناك لتقييم الوضع من مكاننا ومحيطه. ومن هنا تبدو قلعة مرحب في الجنوب - الغربي، أمام جبل عطوة، والنقطة التي تركنا عندها طريق المدينة. لقد سافرنا نحو تسعة أميال حتى نصل إلى نقطة على بُعد حوالي

أربعة أميال من نقطة انطلاقنا. بيد أننا من هنا فصاعداً أصبحنا نستطيع السير إلى الأمام باتجاه الشمال - الشرقي. وبعد عبور الوادي المنخفض الذي يصل جبال دهم وصفر، وصلنا إلى نقطة حيث يبدأ لسان من الحرّة سميك صار من المستحيل معه أن يتقدم المرء أكثر من ذلك. وتوقفنا لندع الدليل يتجول ليحدد المسار الذي فقدناه بطريقة أو بأخرى.

و اضطررنا إلى إعادة تتبع دربنا حوالي ميل، حتى نجد أنفسنا أمام عقبة أخرى، تمنعنا من التقدم على الرغم من أننا سرعان ما وجدنا طريقاً عبر شعيب الأحفرة عبر ممر وسط سلاسل جبال الأحفرة حتى قرية الخضرانة وحقول الذرة فيها. المياه هنا على عمق قامتين فقط من السطح والعدد المقدر من أشجار النخيل يضفي جمالاً على هذه القرية، وهذا الوادي رافد من وادي الأحفرة، الذي يعد بدوره رافداً من وادي الغرس. يمتد طريقنا باتجاه الشرق على طول جرف بارتفاع ١٠٠ متر من الحمم البركانية التي تحد ضفته اليمنى. ومن قمته كان لا يزال باستطاعتي رؤية قمم العطوة، ولكنني لم أعد قادراً على رؤية أي شيء من معالم خيبر. وسرنا نحو ميلين من الآبار عكس اتجاه مجرى التيار ثم استدرنا بصورة مفاجئة لنخرج من الوادي باتجاه الشمال حتى نصل إلى مخيم الأمير في روضة أُمّ العَمْر، بعد أن قطعنا حوالي عشرين ميلاً، على الرغم من أننا لم

نكن نبعد عن خيبر أكثر من خمسة عشر ميلاً. وقد قطعنا هذه المسافة في ما يزيد قليلاً عن خمس ساعات، بيد أن كثيراً من هذه المدة قد قضيناه في وقفات طواعية أو اضطرارية، مِمّا مكنني من تنفيذ مسوحاتي أثناء سيرنا.

كانت الروضة بقعة ساحرة أخاذة، وتتكون من عدد من قطع الأراضي الطينية المنبسطة والتي تفصل بينها ألسنة أو رقع من بازلت الحرّة، وبها العديد من البرك ومجمعات المياه من السيول الحديثة، ووفرة من أشجار السنط الصغيرة. وكانت رياح جنوبية تهب وتسوق الغيوم منذ أمس، وعند الغروب كانت السماء ملبّدة بالسحب، مع غيوم رعدية سوداء في أقصى الغرب.

وكان الكثير من طيور الزعرور البرّي تطير بسرعة بين الزهور الصغيرة البيضاء والحمراء في شجيرات العوسج، التي نما الكثير منها لمستويات تقارب حجم شجرة كاملة في تلك الأرض الخصبة هذه؛ وكل الأراضي تصرف مياهها في وادي خضرانة، وكان من الواضح أن جزءاً عظيماً من السيول الأخيرة قد ذهب في هذا الاتجاه، بينما تسرب معظم ما تبقى إلى باطن الأرض، أو بالتبخر.

وكانت البركة في الحوض الذي خيّمنا فيه قد انخفضت إلى نسبة معتدلة، بينما تقع علامة ارتفاع المياه في السيول، وهي حطام

الأعشاب وروث الحيوانات الطافية، على بعد حوالي خمسين ياردة على الأقل باتجاه مجرى تيار البركة.

وقد قضيت ما بقي من فترة العصر بجوار ركام من الحجارة المصفوفة فوق الجزء المرتفع من الحرّة المجاور لنا، أدرس وأفحص المنطقة بمساعدة محماس. ولم يمض وقت طويل من ركوبنا معاً حتى اكتشفت أن معرفته الجغرافية قد اختفت أو تضاءلت بسرعة مثل معالم خيبر المألوفة التي اختفت وراءنا.

ويتضح الآن جلياً جهله بالمنطقة التي سوف نزورها بدرجة لا يمكن إغفالها أو التغاضي عنها، وقد صرفته من العمل مع رسالة إلى أتباعي والأمير بأنني سوف أبقى حيث أنا، طول الليل إن اضطررت إلى ذلك، حتى يؤتى لنا بدليل كفء. لقد اكتشفت أنه من المفيد أحياناً مع مثل هؤلاء الناس أن تقطب الوجه وتعبس الجبين وترفض الكلام، حتى ولو وصل الأمر إلى رفض الطعام، وهو شيء لا يمكن لأي عربي أن يتفهمه. ومن الصُدف الغريبة أنه فيما عدا ما تناولته من شاي في الصباح فإنني لم أتناول أي مرطبات طول اليوم، حيث إن رفاقي قد أخذوا احتياطاتهم وتناولوا إفطاراً مشبعاً قبل بدء الرحلة، ولم يروا أنه من الضروري دعوتي لمشاركتهم. وعندما اكتشفت ذلك فيما بعد لم أتوانَ في التعبير عن رأيي بصراحة في مثل هذه التصرفات، وعندما حاولوا أن يسترضوني بالبسكويت

والخبز قلت لهم إنني لم أعد جائعاً. وبحلول هذا الوقت كان محمد العريفي وباقي الطاقم الذي خصصه لي عبد الله السديري في المدينة قد سقطوا من تقديري؛ فعلاوة على جهلهم التام بالمنطقة، فقد كان عدم اهتمامهم بها مدهشاً و مفجعاً، وتعجبت ما الذي أغراهم بمرافقتي وإظهارهم لشيء من الحماسة وكان عليّ أن أكتشف ذلك لاحقاً، وكنت أستطيع أن أرى من المكان الذي أقف فيه أن فصل محماس قد أحدث هياجاً في مخيمنا الهادئ، ولم يمض وقت طويل حتى تم تجنيد صبي من الرعاة وإرساله لي، وكان يسير ويعمل معنا بصورة طيبة، إلى أن رأى فجأة أحد أغنامه تضل عن أخواتها، فتركني دون أي مراسم وداع. وقد وجدته بعد ذلك في خيامنا يحتسي بكل سعادة الشاي والقهوة، ولذلك وبخته وعنّفته وأمرته أن يضربها، وقد فعل.

وفي هذه الأثناء استمر البحث عن دليل ملائم للغد، ولكنني انتظرت إلى ما بعد غروب الشمس حتى قُدم لنا خمسان من بني رشيد، وهو رجل من عشيرة ويبان، وقد أقر بأنه يعرف المنطقة كلها من هنا وحتى الحفيرة، وأفطرت من صيامي على عشاء ممتاز قدمه الأمير، مع شعور بأن كل شيء سيكون على ما يرام عندما نستأنف رحلتنا، وكان الليل معتدل الحرارة بصورة تبعث على السعادة ، فقد كان الحد الأدنى لدرجة الحرارة ٥٩ ( فهرنهايت. وكنا نرتقي بصورة

لطيفة إلى الأعالي منذ أن غادرنا وادي خيبر، وكان ارتفاعنا هنا تقريباً هو نفس ارتفاع الأجزاء العالية من الواحة. وتشكل الروضة مستطيلاً تقريباً، طوله نحو ٣ر٥٠٠ ياردة من الجنوب - الغربي إلى الشمال - الشرقي، وعرضه أكثر بقليل من ألف ياردة. والنقاط الوحيدة فيما جاور خيبر مباشرة التي يمكن أن نراها كانت قمة عطوة وتل أم الرَّقَبَة ذي الأصبعين، الذي يطل على ملتقى الأودية. وأمامنا تمتد الجبالُ الشاهقة، مع جبلي الغَمْرَة والمُسَيْلخَة المعزولين والناتئين، وكان الأول أسود اللون والآخر أحمر، وهما يوضحان دربنا المقبل. وهذه الجبال التي تمتد إلى الجنوب قليلاً من الغرب وحتى الشرق قليلاً من الشمال، تشمل عدداً من الجبال المميزة؛ وهي: الحِصَارُ (في أقصى الجنوب)، وذُرَيْب السهل، وجبلا أنمر وطَرْبَان بعد النصبة وذُرَيْب الوَعْر وأم عَنَاب، والوَجْرَة، وأخيراً وَبَر الحَجَر. وأحياناً يتجمع نظام السلاسل الجبلية كلها في مكان محليّ واحد مثل جبال الحَجَر أو جبال العَنْز، التي تشتمل على نحو ست عشرة قمة بارزة، ربما يصل ارتفاعها إلى ٥ر٠٠٠ قدم فوق سطح البحر.

وبعد أن استأذنا من الأمير وودعناه، والذي عاملنا بالتأكيد بكثير من اللطف والكياسة المتوارثة والتعاون المستمر فقد بدأنا مرحلة أخرى من رحلتنا. وبعد حوالي ثلاثة أميال دخلنا قناة شعيب العين

وسميت بذلك لوجود بعض العيون على بُعد أميال قليلة في مجرى القناة، -وهي بقعة ساحرة تتناثر فيها أشجار الدوم- الذي يبدأ في تل يسمى جرثاً (أو يرثاً ويحتمل أن يكون هو نفسه الذي سماه داوتي قرصاً) يقع إلى الشمال - الشرقي منا، ويلتقي بعد حوالي ميلين بعد عبورنا، بشعيب سمحة، الذي يوجد به عيون وحديقة صغيرة من النخيل. وأسفل موقعنا تجري القناة في اتجاه جنوب - غرب لتلتقي بوادي غَمْرَة في طريقها إلى وادي الطَبَق (الذي يشبه الامتدادات المنخفضة لوادي الغَرَس)، وهو رافد رئيس من وادي الحمض الكبير بعد خط السكة الحديدية.

وعقب تمايلنا عبر الوادي وصعودنا ضفته اليمنى، فقد أتينا بسرعة شديدة بعد ذلك على آخر جبل من سلسلة جبال الحرّة في خيبر، والتي يمكن أن يقع حدها الشمالي تقريباً في قناة وادي غَمْرة، التي تمتد الآن مسافة قصيرة أمامنا. إنني أميل إلى الاعتقاد بأن وصف غوارماني الغامض بشدة وغير المقنع لزيارته إلى خيبر يمكن تفسيره بطريقة ذكية على أساس افتراض معقول ينطلق من أن المكان الذي كان يخيم فيه الشيخ رجاء آل عيضة في ذلك الوقت هو روضة أم العَمْر. لقد كتب يقول: «لثلاثة أيام، ظل دليلي متجهاً للجنوب - جنوب - شرق (من تيماء)، يبحث عن مخيم رئيسه على طريق خيبر، بين الصخور الشمالية للحرة، وبعد لحظات قليلة إلى الشرق

من أحد الخزانات الطبيعية الكبرى للمياه. . . كانت خيبر لا تزال على بُعد يوم كامل من المسير» وبعد أن ركب إلى بيضا نثيل (وهي مكان غير معروف)[1] وعاد إلى موقعه في ستة أيام، كتب يقول إنه استغرق "إحدى عشرة ساعة" (بالجمال طبعاً) حتى وصل خيبر. لقد أوضحت النقاط الجوهرية في الموضوع، ولا تختلف أي واحدة منها عن رأيي القائل بأنه قد سافر من تيماء إلى خيبر بنفس الطريق الذي التزمه أيضاً الآن من الاتجاه المعاكس.

وأعتقد أن الجبال التي أشار إليها هي جبال الحَجَر المذكورة أعلاه، والتي بينها وبين الجزء الشمالي من الحرّة لابد أن يقع طريقه إلى بيضا نثيل (جيوف ولد سليمان). وبالنسبة لرحلته اللاحقة من خيبر تجاه القصيم، يبدو أنه قد التف حول الحافة الغربية للحرة، ربما عن طريق رأس وادي اللحن، حيث كان يستطيع من هناك المرور بسهولة إلى ما جاور الحناكية، ويستمر في السير حتى الدرعية. وقد سلك "دث" طريقاً أكثر استقامة ومباشرة من ذلك الذي التزمته حديثاً بين هذه النقاط. إن وجود القرى الثلاث المذكورة أعلاه قد شكك فيه البعض على الرغم من توفر الدليل المؤيد بقوة، بيد أنه

(١) بل المكان معروف ويقع على خط طول ٢١َ ٤٠ْ وخط عرض ٠٤َ ٢٧ْ.
انظر: حمد الجاسر شمال المملكة، إمارات حايل والجوف وتبوك وعرعر والقريات، الرياض، دار اليمامة، ١٣٧٩هـ/ ١٩٧٧م. ص٢٤١.

الآن أصبح من المؤكد أنها كانت موجودة منذ ١٥٠ عاماً على الأقل، وربما أكثر من ذلك. وعندما دخلنا وادي الغَمْرة قادمين من الشمال - الشرقي إلى الجنوب - الغربي، في نقطة يلتف عندها حول جبل الضهيرة مرت طائرة من فوقنا، متجهة نحو الشمال على الأرجح من جدة إلى دمشق عن طريق المدينة. وفي حوض الوادي كان هناك بئر وشجرة أو اثنتان على مقربة منها، وتل الغَمْرة ذو الرأسين ليس ببعيد إلى الشمال - الشرقي. واضطررنا إلى عبور القناة مرتين فوق رمالٍ كثيفة، ولكن كان أمامنا أثر سير جماعة من عنزة التي كانت قد زارت خيبر من دمشق منذ شهر مضى، ليدلنا على الطريق.

ومع ذلك فقد ثبت أن المقطورة كانت أكثر مما يمكن أن تحتمله عربة اللاندروفر، ولذلك فقد غرزت السيارة في الرمل، بينما تمكنت الشاحنة، وهي تسير في أرض بكر، من عبور منطقة الرمال بلا صعوبة. وقد عانينا شيئاً من الصعوبة في الخروج من المشكلة، وواصلنا سيرنا في الوادي، الذي يتراوح اتساعه بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ ياردة، والحرّة تلامس ضفته اليسرى. وعلى الفور تقريباً تحولنا إلى رافد منه، يسمى شعيب حلوباء باتجاه الشمال، وتركنا وادي الغَمْرة لنتجه شرقاً إلى مصدره في الجبال. ويقع رأس رافد الوايد في الشمال - الغربي بين مرتفعات الوَجْرَة ووَبَر، بيد أننا سرعان ما تركناها لنسير فوق سهل هين حتى تل شهيل حلوباء البارز، بارتفاع

نحو ٣٠٠ قدم. وقد صعدناه أنا وخمسان في حين انتقل رفاقنا إلى المهمة الأكثر ملاءمة لمزاجهم وطبيعتهم، ألا وهي إعداد القهوة. من هنا كنا نستطيع أن نرى قمة العطوة في خيبر، بل وحتى تل صرير بالقرب من وادي الثمد علاوة على جبل أم الرَّقَبَه. وإلى الشمال الغربي منا يمتد ممر ريع شرف الإمامة على اليسار من جبل عَنَاب، وتل طويلة الغزوة الصغير خلفه مباشرة، حيث حارب بنو رشيد وقتلوا ابن رفادة من قبيلة بلي خلال تمرده الفاشل ضد ابن سعود في أوائل الثلاثينيات الميلادية.

وكنا نستطيع أيضاً أن نرى بساتين نخيل سمحة إلى الشرق وجبل البرك المنخفض في الحرّة، وهو منشأ شعيب هلهل بينما كانت تقع حافة الحرّة الآن على بعد حوالي ميلين في اتجاه الجنوب - الشرقي. وتقع بئر حلوباء إلى الشرق قليلاً من الشمال، بينما في الشمال - الشرقي كانت تقع أمامنا تلال جَرْث وامتدادها في قمم عَتّاب التي تشبه الفقاعات. وكتلة مُسَيْلِخَةَ الجرانيتية التي تقع في الشمال تقريباً، ومن التلال خلفها تنزل قناة خضيرة الغضن في عدة فروع، عبر سهل يحمل نفس الاسم الذي يمتد أمامنا الآن أثناء مرورنا على طول سفح تلال الغَمْرة، التي يمكن رؤيتها الآن على أنها فوهات بركانية متحللة.

ونحن الآن في المنطقة التي سار فيها داوتي وهي: تل اليمن وبئرها وتلال خفيضة وختم. وكان السهل أمامنا عامراً بشجيرات

السنط الوفيرة، ومسارات الإبل في وسطها تقود إلى موقع المياه وفيه تمر الكثير من قنوات التصريف من جبلي وَبَر وعنَابَ عن يسارنا، عبر السهل بين شرائط البازلت الصلبة المتناثرة. وتقع بئر العَشَاش في الشمال - الشرقي عند التقاء وادي عزيز مع وادي خفيضة. وكنا في وسط متاهة غير عادية من الجبال وسلاسل الهضاب والتلال والأودية التي تعتمد عليها، في حين كان هدفنا المباشر ممراً ضيقاً عبر كتل مسيلخة الجرانيتية الحمراء وبالتالي كان علينا أن نعبر خطوط التصريف الثلاثة وهي غضن وعزيز وذو خشب التي تلتقي مع بعضها في المنطقة المنخفضة بالأسفل حسب هذا الترتيب قبل أن تندمج بصورة نهائية في وادي خفيضة بعد التقائه بوادي الغمرة، وهو الشريان الرئيس في المنطقة كلها. ومن خلال الثغرة التي صنعوها بين المرتفعات المحيطة بهما كنا نستطيع أن نرى قمة جبل الأبيض ومنطقة هائلة من الحرّة المجاورة. ويقال إن مرتفعات جَرْث (وربما تكون جرس) وعتّاب هي المكان المفضل لتيوس الجبال.

وقد عبرنا وادي غضن على بعد حوالي ميل من جبال منشأة، وسرعان ما كنا أمام ممر مسيلخة، حيث توقفنا للحظات قليلة لننظر بإعجاب إلى ممر ضيق بين كتلتين ضخمتين من الجرانيت الأحمر المكشوف. وكان طول الممر أقل من ميل وعرضه ٢٠٠ ياردة تقريباً، ولكنه لم يشكل أي صعوبة لنا، وسرعان ما كنا نعبر حوض شعيب

عزيز الوعر على بعد ميلين تقريباً من منشأه في جبل شَقْرةَ على يسارنا. وللوراء منه كان المسير وعراً على صخور بازلتية متناثرة، والتي تمتد وراءها تلال أم بردية وذو خشب في حين كنا نلمح من ورائهما أيضاً جبل حَمْرَاء بضيع الشديد الاحمرار إلى الشرق قليلاً من الشمال. ولم يمثل شعيب ذو خشب الصغير أي صعوبة، ومررنا خلال الجبل نفسه بممر سهل، بعد أن قاسينا من بعض الأرض شديدة الوعورة في الاقتراب منه. والآن كنا نجابه قناة وادي الحُفَيِّرة الواسعة، التي تتراوح في اتساعها بين ألف إلى ألف وخمس مئة ياردة بين سلسلتي جبل ذو خشب وأم رَضَام، وكلاهما من البازلت شديد السواد في ضوء شمس الغروب الخافت. وقد اخترنا بقعة جميلة مليئة بالشجيرات على ضفة الوادي اليمنى والتي سرعان ما حططنا رحالنا فيها لقضاء الليل بعد عناء يوم مثير وعامر بالعمل، والذي قطعنا خلاله ثلاثين ميلاً. إن وادي الحفيرة هو آخر الروافد في نظام التصريف الذي يشكل رأس وادي الغَمْرة، وكان علينا أن نكتشف -بعد أن سرنا فيه حتى رأسه قرب آبار الحفيرة- أنه ليس أقلها على الإطلاق. وكان الليل معتدلاً، وأدنى درجات الحرارة فيه كانت ٥٠ درجة فهرنهايت، بينما كنا على ارتفاع أعلى من خيبر بنحو ١٠٠٠ قدم، وعلى بُعد خمسين ميلاً فقط منها.

وأجبرتنا كثافة الرمل في حوض الوادي على أن نزحف على طول ضفته اليمنى، حيث كان هناك مسار وعر، ولكنه غير صعب،

معبّد بحجارة البازلت بمرور السيارات سابقاً. والنتوءات الشاهقة العرضية من ذو خشب وسلاسل الجبال على شماله كانت تشكّل طريقاً متعرجاً وسهلاً، وكانت قمة ذو خشب تعطينا نظرة طيبة على المنطقة المجاورة من حين لآخر.

وبعد حوالي ثلاثة أميال من مخيمنا، أتينا على جبل خنزيرة الأحمر البارز، الذي كانت صخوره الرايولايت اللامعة تقف في تناقض رائع مع الكتل السوداء المحيطة به. وبعد عبور شعيب خنزيرة، وهو رافد من الحفيرة، توقفنا مدة وجيزة لتدوين ملاحظاتي، وبينما كنت منهمكاً في ذلك، عثر رفاقي على حفرة حيوان الشيهم (وهو من القوارض مثل القنفذ)، وقد جمعت عدداً من فقراته. إن هذا الحيوان -الذي ينشط بالليل- نادر في هذه المناطق الجبلية، وعلى الرغم من أنه نادراً ما يرى، إلا أنني لم أر أبداً واحداً منه حياً في بيئته الطبيعة من قبل. وقبيلة هتيم والقبائل الأخرى من المرتبة الدنيا لا تشمئز من أكل لحمه، ولا من لحم القنفذ، على الرغم من أن كليهما لا يعدان لحماً شرعياً في الدوائر الأكثر أرستقراطية أو غنىً. وقال لي خمسان إن المنطقة الجبلية حول جرث كانت ملجأ مشهوراً لحيوان الشيهم. ويدخل شعيب صولة وادي الحفيرة مقابل خنزيرة، وهو ينبع من مجمع جبال أم رضم الذي يقال إنه يمتد لعدد من الأميال للخلف من الضفة اليمنى

للوادي. وإلى مسافة بعيدة باتجاه عكس التيار على الضفة اليمنى، كان الرافد الكبير لشعيب حريمل يهبط خلال تلال وجبال الأرَاكَة وأم سَهْليل غير المعروفة، والتي تستمر حتى جبل أم رضم باتجاه الشمال. وكنا ننحرف مبتعدين تدريجياً عن قناة الحفيرة، التي انتهت أو انتفت الآن لتبتعد عنا وتتجه إلى الأراكه وأم رضم، بينما دخلنا نحن وسرنا بالتزام حريمل عبر مجمع جبال أم سهليل. وفي هذه المنطقة أقلقنا راحة غزالة وحيدة وجدناها، وغراب الصحراء العادي (Ruficollis) قد أفسح الطريق لابن عمه بذيله الذي يشبه المروحة (Rhipidurus). وكانت هناك بعض الأكوام من الحجارة التي تمثل على ما يبدو قبوراً، ولكن اتضح أنها غير ذات شأن، ولم يكن خمسان يعلم عنها شيئاً.

وقد انحرفنا الآن مبتعدين عن قناة حريمل، التي تجري عبر التلال في مجرى شمالي - غربي، بينما سرنا في أرض فضاء بين تلال أم سهليل باتجاه الشمال. ومن هذه النقطة كنا لا نزال نرى في الأسفل مباشرة الحفيرة باتجاه موقع مخيمنا وما وراءه، ولكن بعد أن وصلنا إلى مضيق بين جبلين في قمة الأرض الفضاء، لم نعد نستطيع أن نرى علامتنا الأرضية السابقة، في حين يمتد أمامنا سهل بيضاوي الشكل قليل الانحدار، باتساع ميل تقريباً ومحاط بتلال سهليل الصغيرة. وفي أدنى هذه النقطة كان يقع دربنا، ولكن قبل أن نشرع

فيه توقفت لتدوين ملاحظات عن المنطقة الجديدة التي لاحت لأنظارنا. وكنت آمل أن نسير بالقرب من الأجراف الحمراء التي تدعى (حَمْراء بَضيع) لنحدد ما إذا كانت من صخور الرايولايت مثل جبل خنزيرة، أو من الصخور الرملية، والتي ستكون شيئاً مثيراً للدهشة والإعجاب.

بيد أننا تركناها بعد مسافة ما عن يميننا، وربما على ضفة حفيرة، وكنا الآن لا نستطيع أن نرى أي شيء منها. وعلى كل حال فقد رأيت أمامنا بالفعل كتلة من الصخور شديدة الاحمرار، وعندما سألت خمسان عن اسمها، أذهلتني إجابته وملأت عقلي بتوقعات غريبة، فقد قال إنّ اسمها المَذْبَح (المضبح) كما لو كان ذلك اسماً من بين الأسماء الكثيرة التي كان يعطيني إياها خلال الثماني والأربعين ساعة الماضية لإشباع نهمي الذي لا ينتهي من الأسئلة والاستفسارات. ومن واجبي أن أقر حقاً إنصافاً له، بصدق مزاعمه بأنه يعلم كل معلم من المعالم الأرضية الواقعة بين قرية الروضة وحفيرة والتي تأكدت فعلاً بأدائه خلال مرافقتنا. ومن المؤكد أنه لم يعي تماماً أن هذا الاسم يعني "مذبح الأضاحي"، وربما كان ذلك مكاناً مقدساً لدى الأقدمين. وسألته عما إذا كان قد رأى أبداً أي صور أو نقوش في هذا المكان، وكانت إجابته بالنفي. وكان من الواضح أنه لم يتجشم أبداً عناء الانحراف عن الدرب المعبّد، وهو

على مرمى حجر من الجبل الأحمر، ليفحص عن كثب سلسلة مميزة من الصخور والشقوق والمنحدرات. ووراءها، أشار إلى قناة شعيب يَطرُوح، مع جبل بنفس الاسم على طول ضفتها اليسرى، والتي - كما قال - تتصل بجبل يمن بعد مسافة بعيدة في الجنوب وجبال الختام الشاهقة بالقرب من رأس وادي الغَمْرة. كل هذه الأسماء قد سجلها داوتي في أثناء جولاته، ولكن من الواضح أنه لم يزر وادي يطروح، ولم يسمع باسم المذبح، وعلى مسافة بعيدة وراءه يقع جبل آخر أحمر اللون قليلاً يسمى الأبْرَقيَّة، والذي كان أيضاً يبدو لي من بُعد أنه من الحجر الرملي.

وبعد حوالي ميلين أو أكثر قليلاً تحوّل تصريف السهل البيضوي بصورة حادة إلى اليمين ليدخل وادي الحفيرة على بُعد ميل تقريباً من دربنا، الذي استمر بصورة مستقيمة حتى مضيق بين قمتين، ومنه يمكننا رؤية شعيب حريمل آخر إلى أسفل وهو يقطع طريقنا ليدخل الحفيرة عن يميننا. وكنا الآن نستطيع أن نرى أن الوادي يجري بين الأرض المنخفضة التي يمتد عليها طريقنا وقوس جروف المذبح الحمراء الرائعة ماراً بمسافة قدرها خمس وأربعون درجة من الشمال - الغربي حتى الشمال. وعلى الجانب البعيد من ضلع الحجر الرملي يقع وادي يطروح الذي ينتهي عند جبل بنفس الاسم. وبعد عبور شعيب حريمل كنا على بُعد ميل من حافة وادي الحفيرة، التي قطعتها

في خط مستقيم حتى وصلت أول مجموعة من جروف الحجر الرملي، بالرغم من أن خمسان احتج على تركي مسار السيارات والمخاطرة بالوحل في الرمال.

لقد مضى كل شيء على ما يرام، وفي لحظة اندفعت إلى سفح الجرف لأقف أمام معرض للصور القديمة عليها توقيعات ثمودية، التي يحتمل أن تكون للفنانين الذي أسهموا فيه. ولم نكن قد تقدمنا سوى اثني عشر ميلاً تقريباً من آخر مخيم لنا، ولكني قررت أنه سيكون من الأفضل أن نخيّم في مكاننا هذا بقية اليوم، وهو آخر أيام العام. وثبت أن ذلك كان جديراً حقاً بالاهتمام، بعد أن مضت إحدى عشرة ساعة من العام الجديد عندما تركنا نهائياً درب الضبح.

ومن الممكن أن غوارماني أيضاً قد سلك هذا الطريق، على الرغم من أنه لم يدرك أهميته، بينما إن داوتي -كما ذكرنا من قبل- لم يكن على دراية به.

لقد كان من الواضح أنني أول زائر أجنبي لمشهد من الأحداث القديمة، التي لا يمكن تحديد طبيعتها بدقة من أول وهلة، على الرغم -حتى وأنا أكتب هذا الوصف لتجاربي في عجلة- من أن النقوش التي جمعتها من المذبح والأماكن الأخرى التي زرتها خلال رحلتي هذه تخضع الآن للدراسة على أمل نشرها قريباً بواسطة الدكتور/ فان دين براندن في هريسه على الجبل التالي نحو الشمال من الجبال

اللبنانية، على بُعد أقل من ميلين في خط مستقيم[1]. ومع توقعات نتائج استكشافي للمنطقة، يجب عليّ أن أعترف فوراً أن أحد اكتشافاتي هو أنني بعد كل شيء لم أكن أول أجنبي يزور المكان. لقد عثرت على أحد النقوش العربية المخربشة على أحد هذه الأجراف، ومن الواضح أنه قد كتبه المترجم العربي لجماعة ما زارت المذبح منذ عدة سنوات، والتي كانت تضم اثنين من علماء الجيولوجيا الأمريكيين.

وكان أول همي، بعد نسخ النقوش والصور في المنطقة المجاورة لنا مباشرة، أن أتسلق قمة الجزء الرئيس من جبل الحجر الرملي، التي ترتفع ٢٠٠ قدم تقريباً، والتي كنا نخيّم بجوارها. إن الخط العام لكتل الحجر الرملي في المنطقة، والتي تنفصل عن بعضها البعض بثغرات ذوات اتساع متباين، كان من الجنوب - الشرقي إلى الشمال - الغربي وكلها تمتد في بقعة قدرها ميلان بين واديي الحفيرة ويطروح، اللذين يلتقيان عند أقصى طرفيهما الجنوبي. وإلى الجنوب - الغربي وراء الضفة اليمنى للحفيرة تقع منطقة أم كليل الجبلية، وجبل الصَّفْرَان وراءها على بُعد ستة أميال تقريباً، والذي يتميز بقمتين شاهقتين. وعند الالتفاف إلى مسافة بعيدة نحو الغرب

(١) نشرت في ١٩٥٦م. المؤلف.

والشمال- الغربي كان الأفق مسدوداً بجبل الحما ذي اللون الأسمر الفاتح، وكتلة شاهقة عرضية، وإلى البعيد باتجاه الشمال - الغربي، يظهر جزئياً جبل الأرْدَام الطويل المتقطع. وينتمي الأخير إلى ما يسمى بالهضبة، أو الشفا في حين تعد منطقة الحفيرة، من المنحدر الطفيف الذي يشكل حدها الفاصل، جزءاً من نظام جبال الحجر الذي يمتد نحو الجنوب - الشرقي حتى رأس الغمرة ويشمل أم كليل ويطروح، وذو خشب وأم رضم، علاوة على الختام والمخيط والتلال الموجودة حول آبار يمن. ومن المحتمل أن تكون جرث والعتاب جزءاً من هذا النظام أيضاً، وبالصدفة لم يكن جبلا عتّاب والحمراء يضيع من الممكن رؤيتهما من هنا من بين العلامات الأرضية البارزة في خلفية رحلتنا.

وإضافة إلى ذلك يعد نظام جبال الحجر جزءاً من الحجاز، في حين يستبعد الشفا من ذلك، على الرغم من عدم تحديد صلاتها الجغرافية بوضوح. وأعتقد أنه سيكون من المعقول أن ننظر إلى الحجاز الحقيقي على أنه يمتد باتجاه الشمال ليضم كامل وادي الحمض وجميع روافده، ويصل إلى ساحل البحر الأحمر إلى نقطة تقع في مكان ما شمال الوجه. ومن الصعب أن نقترح اسماً ملائماً جامعاً لكل المنطقة شمال هذا الخط حتى العقبة وخليجها، ولكن، بعد عمل تعديلات طفيفة على الخط لصالح المنطقة الشمالية واحتراماً

لأسباب سياسية قديمة، أعتقد أن الأخيرة يمكن أن تعد بشكل معقول "أرض مدين"، التي تكون حدودها الجنوبية تمتد من الطرف الجنوبي لجبل المذبح وشاملة المنطقة حتى بئر مغيرة على سكة حديد الحجاز جنوب العلا، ومن هناك حتى رأس وادي عَنْتَرَ، ومتابعته حتى البحر ويبدو أن السبب الذي يجعل تقديم اقتراحي هذا غير منطقي نسبياً هو أن الخط الذي رسمته يبدو أنه يحد المنطقة باتجاه الجنوب التي كانت تحت الاحتلال الفعلي خلال القرون الأولى قبل وبعد الميلاد من قبل الأنباط الذين قضوا على المعينيين في العلا ومدائن صالح والحجر والذين بدورهم جاؤوا بعد اللحيانيين الذين يمكن، حسب أقصى ما نعلم، أن يكونوا هم المدينيين، أنفسهم أو الذين خلفوهم بعد هزيمتهم.

والشيء الوحيد المؤكد هو أنه -وبصرف النظر على ما يبدو عن مناجم الذهب الشهيرة في مدين، والتي سوف يظل الكثير منها تبعاً للخط الذي رسمته واقعة في الحجاز- ليس لدينا أي دراية عن أي مستوطنة مدينية في المنطقة، وفي الحقيقة ولا أي دليل تاريخي أو آثاري لوجودهم خارج الروايات الواردة في الإنجيل. ومهما يكن من أمر، فإن النسبة العالية لنقوش الأنباط التي اكتشفتها في صخور وأجراف المذبح لا تدع مجالاً للشك في أن الناس الذين دوّنوها كانوا على دراية بهذه المنطقة. وقد أتوا إليها ربما للصيد أو للتخييم

في الربيع من مدائن صالح، وهم كانوا يحكمونها بصفتهم ملوكاً، أو زائرين لها لبعض الأغراض الدينية، وهو الشيء الذي يعنيه الاسم الباقي حتى هذا اليوم.

وعندما نزلنا من النقطة المميّزة التي ارتقيناها، بدأت في جولة على المنطقة، لأمسح الأجراف في أثناء ذهابي باتجاه الجنوب، وأجمع النقوش من هنا وهناك، التي كان معظمها ثمودية. ومن النقطة الجنوبية في جبل الرملي انحرفت إلى وادي يطروح، أتفحص الوجه الشرقي للصخور حتى وصلنا إلى أرض فضاء تربط الواديين من خلال ثغرة في جبل المذبح. ومن وراء طرفه الغربي مباشرة، وباتجاه الشرق من مكان قريب خارج خط الأجراف، أتينا إلى صخرة معزولة من الحجر الرملي، حفرتها الطبيعة في شكل يشبه أبا الهول.

وكان رأسه المسطح، ورقبته، وجسمه، ومخالبه يمكن تمييزها بصعوبة، وخلفها يوجد الجسم بظهره المسطح، الذي تخيلته مكان المذبح الذي توضع فيه القرابين لبعض الآلهة. وعلى الكَفَل، الذي كان ناعماً ومسطحاً لوضع القرابين، كان هناك نقش من سبعة أو ثمانية سطور طويلة، والتي كانت لسوء الحظ متآكلة بصورة سيئة جداً يستحيل معها فك رموزها، أو حتى تحديد ما إذا كانت من الأنباط أو الثموديين. وكان هذا أعظم خيبة أمل لي بيد أنه كان لديّ

قليل من الشك في أننا قد تمكنا من تحديد المذبح الذي أخذت منه المنطقة اسمها. وكان الوقت قد أصبح متأخراً حيث عدنا أدراجنا إلى المخيم، وتركنا فحص باقي المنطقة حتى الغد.

وقد رأينا عدداً من الأرانب البرية وطيور الحجل خلال نزهتنا، ولكننا لم نصد شيئاً منها لطبخه، ولم أكن قادراً على تحديد أنواع الطيور بأي قدر من التأكد. فربما تكون طيور الحجل من نوع السيسي، لأنها لم تبدو كطيور الحجل العربية ذات الرأس الأسود (Melanocephala)، ولا يمكن أن تكون من النوع الذي رأيته في وطني بأقصى الشمال. وتناولنا عشاءً خالياً من اللحم في ليلة رأس السنة الجديدة، وكانت ليلة رائعة ذا ت حرارة معتدلة وندى خفيف. إن العرب يميّزون الاختلاف المناخي بين منطقة الحجاز الدافئة والشفا في الحافة الغربية لصحراء شمّر الكبرى، ولكن التغيير لم يكن واضحاً إلا قليلاً بالنسبة لي، وكان الحد الأدنى لدرجة الحرارة في الليل ست وأربعون درجة فهرنهايت. وكنا الآن على بُعد حوالي اثنين وستين ميلاً من خيبر، وما يزيد عن ٢٠٠ ميل من المدينة.

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، وهو أول أيام السنة الجديدة، واصلنا فحص أجراف المذبح وراء فجوة أبي الهول، على الرغم من أننا لم نحصل على مزيد من النقوش. وهنا وهناك كنا نتعرض لصعوبات بسبب الرمل الكثيف، لا سيما في أول جرف

وراء الفجوة، الذي يمتد منه شريط من الرمل إلى مسافة حتى يقترب من قناة الحفيرة. وكان آخر رأس من منطقة الحجر الرملي متوجاً بقمة مستدقة رائعة، ولكن الأجراف تحتها لم يكن بها أي نقوش. ولذلك واصلنا طريقنا باتجاه الشمال - الغربي حتى وادي الحفيرة، ونسير فوق مرتفع من البازلت يُعرف باسم عَبْد الحفيرة، الذي يميز تقريباً موقع الآبار، التي وصلنا أولها بعد ميلين. وفي أثناء ذلك أزعجنا في طريقنا سرباً صغيراً آخر من طيور الحجل، الذي كان بالتأكيد من النوع ذي الرأس السوداء.

وتعرف البئر السفلى باسم حفيرة الدنيا، وبها ماء على عمق ست قامات بفتحة مبطنة بالحجارة. وكانت فوهة البئر بيضوية الشكل طولها خمسة أقدام وعرضها ثلاثة أقدام. وبالقرب منها يوجد بيتان صغيران بائسان مهجوران، كان يسكنهما ذات يوم حراس جاؤوا بلا شك من القرية العليا، على بُعد حوالي ميل. والآن قد وصلنا هذه القرية لنجد فيها قصراً متوسط الحجم يعود لرئيس قبيلة عيضة وحوله بيوت قليلة (بعضها متهدم) فارغة، حيث هجرها ساكنوها إلى مخيماتهم الربيعية، باستثناء امرأة عجوز وابنتها ذات العشر أو الاثني عشر ربيعاً، علاوة على كلبين. وقد تركت هذه العجوز لتتولى شؤون الرعاية والاهتمام في غياب الشيخ، الذي كان من الواضح أنه قد أهمل توفير احتياجاتها المعيشية. وكان بإمكاني

المساهمة في ذلك بما تبقى من طعام غدائي، الذي تناولته هنا بجوار البئر الرئيسة. لقد كان من الواضح أن الأم وابنتها من العبيد، وكانت حالتهما مزرية شديدة البؤس، على الرغم من أنهما كانتا ودودتين مستسلمتين لحظهما القاسي، الذي علّمتهما دنياهما ألا يتوقعا أفضل منه. وفي الوادي الذي يشكّل أحد عدة رؤوس لوادي الحفيرة، توجد عدة آبار وبستان نخيل صغير، وبعض حقول الذرة الضئيلة.

إن المجموعة الصغيرة التي استوطنت هذه القرية كان أفرادها من الواضح أنهم من "الإخوان" في زمن الأيام الباكره للتمسك بالدين، بيد أن حالة التهدم والخراب الذي كانت عليه معظم البيوت القليلة، باستثناء القصر، توحي بأن القوم كانوا يفضلون الحياة في الصحراء الشاسعة على بيوتها. والقصر نفسه كان، بصورة رئيسة، بمثابة مستودع لممتلكات الشيخ. وكانت بئر المروى (مياه الشرب) مبنية بصخور البازلت، بإفريز مائل من الطوب الرملي، نقش عليه أحدهم اسم "محمد بن فرحان". وتقع عند الحافة الخارجية لجبال أم سحيل، وبها ماء على بعد ثلاث قامات. ويجري شعيب الجفر، وهو أحد رؤوس الحفيرة، إلى أسفل في مسار صخري شديد الضيق، بينما يهبط رافد آخر من منحدر تل عبد الحفيرة، ويبدأ الأول في سلسلة ويوجد في حوضه بئر، على بُعد حوالي ميلين في اتجاه عكس التيار من القصر.

وقالت لنا المرأة العجوز إن القبيلة كانت تخيّم حول آبار المِنْدَسَّة على بعد مسافة ما نحو الشمال، وإلى هناك كان هدف استئناف سيرنا، وبعد أن عبرنا سهل الجهراء المنحدر انحداراً خفيفاً وهو يشكل رأس وادي الحفيرة ويطروح، فقد توقفنا عند واحد من العدد الهائل من نتوءات الحجر الرملي، والتي تشكل بقعة تُعرف باسم طويلات (أو ضليعات) الضاعي، لنحصل على قراءات اتجاهنا من قمته المسطحة. إن جبل الأردام من الحجر الرملي، طويل، ومنخفض، وبلا ملامح تقريباً ويقع على بُعد حوالي عشرة أميال إلى الغرب منا، مع جبل آخر من جبال الشفا، يُدعى الأسياخ، على مسافة أبعد إلى الخلف ونحو الجنوب - الغربي.

وكنا لا نزال نستطيع رؤية قمة عتاب والآن ولأول مرة رأيت البركان المرتفع الذي يسمى جبل اثنان، وهنا رأى داوتي بقربه أسراباً من النعام، التي انقرضت الآن من الجزيرة العربية، والأخير هذا يقع تقريباً للشرق تماماً منا على مسافة بعيدة، في حين، أمامنا نحو الشمال - الغربي، وأيضاً لأول مرة، رأيت جبل بِرْد العظيم، الذي يرتبط في ذهني بكل من داوتي، وهوبر، والمكتشفين المشهورين الآخرين، وقد نطق خمسان اسم الجبل بالكسر بِرْد وهو قد كان موقع حراسة متقدم لتيماء القديمة. وأمامنا مباشرة باتجاه الشمال- الشرقي يمتد حوض المندسّة الطويل الواسع، ويدعمه جرف طويل

منخفض من الحجر الرملي، بالقرب منه بعض الآبار بنفس الاسم التي وجدنا فيها مخيّماً كبيراً من الخيام السوداء لشيخ قبيلة عيضة، وكل قبيلته ومواشيه. وكانت الوديان وسلاسل الجبال التي واجهناها في الأيام القليلة الماضية قد أفسحت الآن المجال لسهلٍ صحراوي فسيح ينفتح باتجاه الشرق نحو حدود شمر؛ أرض حاتم الطائي صاحب الكرم الأسطوري. وكانت خيبر الآن إلى الجنوب منا تماماً تقريباً، في حين كانت العلا أمامنا في جهة الغرب.

واصلنا سيرنا بصورة رائعة من حافة منخفض المندسّه، حتى ثلاثة أميال على أرض طينية منبسطة بأقصى ما يمكن أن يتصوره الإنسان، لقد كانت ديتونة (Daytona) مصغّرة، والتي انحدرنا خلالها حتى نصل إلى النقطة الوحيدة التي يمكن عندها أن تصعد السيارة على الجرف المنخفض في الضفة البعيدة، وما هي إلا لحظات قليلة حتى كنا نقف بين خيام آل عيضة. ولسوء الحظ كان محمد بن فرحان نفسه غائباً، على الرغم من أنه كانت مفاجأة سارة أن نجد ولده، ظهر، يقوم على تشريفات القبيلة، ولقد استضافني بحفاوة وكرم شديدين في عام ١٩٣٧ بالليث، التي كان أميراً عليها، بمناسبة زيارتي لها عند عودتي إلى مكة من حدود اليمن. وبعد المراسم الأولية لاستقبالنا، استأذنت منه في أن ننصب خيامنا على مسافة ما من مخيمه تحت حمى الجرف الذي كان به عدد من النقاط التي

تمكنا من مسح المنطقة. ووراء السهل الفسيح الذي يمتد من سلاسل الجبال هذه نحو المنطقة الجبلية التي غادرناها تواً، كان المشهد يضم طيات وسلاسل جبال يطروح، والمذبح، وأم كليل (وعلى البعد مرتفعات الصَّفران)، وجبال صناف، وأجارم، وأسياخ، والأردام، والتي تغطي الطريق إلى العلا ومدائن صالح والسكة الحديدية. وكنا أيضاً نستطيع أن نرى خنزيرة، على الرغم من أننا لم نعد نرى عتّاباً، وتقع خلفنا باتجاه الشرق منطقة مرتفعة وواسعة من صخور الحجر الرملي القاسية والمتكسرة، دون أي علامات أرضية بارزة باستثناء تل أم رقيبة النحيل على مسافة بعيدة إلى الشمال - الشرقي. وتوجد آبار الحفيرة شملى على الطريق من تيماء إلى حائل فيما وراء هذا التل في نفس الاتجاه، حيث بدا أن السماء تمطر هناك بالفعل، ومن مكاننا ألقيت نظرة على آبار المندسّة في الأسفل، التي كانت الإبل والأغنام تشرب منها في ذلك الوقت. وكذلك توجد آبار أخرى عند سفح الجبل التالي باتجاه الشرق، وتسمى الأبرقيّة وكانت جميع المراعي المحلية في حالة سيئة، لأنه لم يسقط المطر بعد في هذه الأنحاء خلال الشتاء الحالي.

وبعد غروب الشمس مباشرة كنا قد دُعينا لتناول العشاء في خيمة الشيخ، حيث اجتمع عدد من كبار رجال القبيلة لمقابلتنا، وكان ظهر، مضيفاً ظريفاً، ذا أخلاق رفيعة وموضوعات كثيرة يتحدث

عنها، والوليمة التي وضعها أمامنا كانت وفيرة بدرجة كافية، وتتكون فقط من لحم الضأن والأرز مع بعض الأصناف الغريبة الأخرى، التي لم تكن مطهية بصورة جيّدة ويصعب أكلها في الظلام، وآل عيضة هم الجزء المهم أو البارز من فرع أولاد علي من عنزة، وكان محمد بن فرحان قد ذهب مؤخراً إلى بئر مغيراء على حدود منطقة قبيلته قرب العلا، والذي دخل بشأنه في نزاع طويل مع قبيلة بلي؛ لقد ذهب بنفسه مع ابن رفاده من القبيلة المنافسة لزيارة الملك في الرياض خلال الصيف لدراسة الموضوع وحله هناك، ومن الواضح أن القرار النهائي كان في صالحه بالنسبة لملكية البئر، على أن يخضع ذلك لشروط معينة تضمن حق الجميع قاطبة وبلا استثناء، ومنهم قبيلة بلي في استخدام المروى لكافة الأغراض الشرعية. لقد كان ابن سعود عازماً منذ زمن على إلغاء العادة القبلية القديمة في احتكار المياه.

وقبل المغادرة كان محمد يستضيف خالد السديري -أمير تبوك- أثناء سيره ماراً بالمندسّة في طريقه إلى الرياض، عن طريق حائل. لقد مرت سياراته الخمس بأسفل القاع أو الأرض الطينية المنبسطة، حتى لسان الأبرقيّة التي تركوها على اليمين في طريقهم إلى بيضا نثيل. وعندما تحدثنا عن النقوش أخبرني ظهر أنه كان هناك بعضٌ منها على جبال خنزيرة، التي فاتتنا لسوء الحظ، وربما يتوقف عندها

بعض الرحالة في المستقبل قليلاً من الوقت لبحثها، وكان يعلم أيضاً بالبعثة الأمريكية إلى المذبح بصحبة أحمد فخري[1]، وهو تلميذ قديم لـ كي. إس. تويتشل. وكان آنذاك مديراً لإدارة المناجم والمشاريع بوزارة المالية، ولكنه توفي بصورة مفاجئة عام ١٩٥٤م. وبصفته الرسمية كان المدير الفعلي لمتحف جدة، الذي تم إنشاؤه بمبادرة من رجل ويلز (إنجلترا) يُدعى غيبس، ويمتلئ المتحف بأشياء أثرية وجيولوجية وجدتها أنا خلال رحلتي الحالية وبعثاتي اللاحقة. إن مغادرة غيبس عند انتهاء عقده مع الحكومة قد ملأ قلبي خوفاً وخشية من أمر مرتقب بخصوص مصير المتحف ومحتوياته، وبعضها فريد من نوعه وأحياناً عالي القيمة.

إنني لم أقابل مسؤولاً في الحكومة، كبيراً أو صغيراً، كان علم بوجود هذه المؤسسة، أو تجشّم عناء زيارته عندما أذكر له وجوده. وقد قدمت اقتراحاً، في مناسبة متأخرة، أن يقوم الملك الحالي بتشريفه بزيارة رسمية، ولكن لم يُلتفت إلى اقتراحي فأهمل تماماً. وكان من الواضح أن أحمد فخري هو الذي سجّل النقوش الموجودة بالمذبح خلال زيارة الأمريكان، وكان ظهر على دراية أيضاً بأبي الهول في المذبح، والذي قال إنه معروف محلياً باسم القطيعة. كما

(١) الدكتور أحمد فخري، عالم مختص في الآثار المصرية، ولد في الفيوم ومات في باريس، كان مولده في عام ١٣٢٣هـ، ووفاته في ١٣٩٣هـ، الموافق ١٩٠٥م إلى ١٩٧٣م. انظر الزركلي، الأعلام، ط١٣، ج١، ١٩٤.

تطوع أيضاً بإفادتي بأن الأمريكان لم يروا أو حتى لم يبحثوا عن النقوش.

وقد وعدنا ظهر بتوفير أدلاء ملائمين للجزء التالي من رحلتنا، ولكن لم يظهر أحد حتى وقت استدعائنا مرة أخرى في الصباح لتناول الفطور مع مضيفنا. وحيث إننا كنا نأمل أنهم سيكونون موجودين في خيمته، فقد قمنا بتجهيز وتعبئة حاجياتنا في السيارات استعداداً للانطلاق، ولكن لم يُقدّم لنا إلا اثنان بعد الانتهاء من طعام الفطور، ولم يكن واضحاً مدى معرفتهم الدقيقة وما بدا منهما لم يكن مشجعاً جداً ولكنهما كان يريدان من ينقلهما إلى تيماء لأسباب تخصهما، وعندما حاولت أن أقرر أيهما سيكون الأفضل قالا بكل صراحة إنه يجب علينا إما أن نأخذهما معاً أو نتركهما معاً، وكان لدينا الكثير من الأماكن المتاحة، فقررت أن أقبلهما الاثنين، واخترت واحداً منهما جزافاً ليركب معي، بينما ركب الآخر في الشاحنة. وقد وضعت خمسين ريالاً في جيبي لتوزيعها بين خدم الشيخ كعلامة شكر على استضافتنا، وكنت الآن أبحث عن الوسائل الحكيمة لأنقل النقود من جيبي إلى أيديهم بحذر وكتمان، وعندها سحبني ظهر جانباً وهمس في أذني قائلاً إنه إذا كان عندي أي نقد فائض فإنه يستطيع أن يستفيد منه بطريقة أفضل. ولم يكن من عادتي أبداً أن أقدم حافزاً (بقشيشاً) لمن يستضيفوني في رحلاتي

بالجزيرة العربية، بيد أني كنت ألتزم دائماً بالعادة الصحراوية في إعطاء خدم مضيفي بقدر ما آخذ من سيدهم. وهي بصورة عامة مسألة حساب بسيط لقيمة الخراف التي ذُبحت على شرفي، مع بعض الريالات الإضافية للأرز والقهوة، وقليل من الريالات الأخرى للسعة، وكانت الخمسون ريالاً التي قدمتها تمثل مبلغاً وفيراً في حد ذاتها، ولكنني الآن جوبهت بموقف غير عادي، ومضيفي يطلب المكافأة أو التعويض لنفسه، وبدون إبداء أي إكراه أو سوء فهم، فقد وضعت النقود في يده "لتوزيعها على خدمه". وانكبّ على عنقي يقبله بشكر عميق، ثم ركبت سيارتي وقدتها مبتعداً بأسرع ما أستطيع. لقد كان رجلاً صغيراً في حجمه، في حوالي الخامسة والثلاثين من العمر، لطيفاً ودمث الأخلاق، ولكنه ربما تعوزه الحكمة والتعقل قليلاً، ومن الواضح أنه طماع وجشع، وهذا لا يبشر كثيراً بأنه سوف يرث الزعامة في قبيلة عربية عظيمة. وأثناء رحيلنا رأيت الإبل والأغنام تمضي في طريقها الشاق إلى مراعيها الخاصة بكل منها، فالأغنام تتجه لليسار صاعدة الجبل، والإبل تتجه لليمين على طول حافة الأرض الطينية المنبسطة الواسعة.

وسرنا ثلاثة أميال قبل أن نقف لنسجل ملاحظاتنا عن المنطقة المحيطة بنا، وقد التزمنا الأرض المرتفعة على طول جبل المندسّة، والأرض الطينية الواسعة عن يسارنا، والتي سماها دليلنا الجديد

أم شيتات، وكان من الواضح أنها حوض تصريف بدون منفذ أو مخرج للأمطار والسيول الآتية من المنحدرات المجاورة. وكنا الآن على طرف جبل المندسّة، متجهين نحو سهل وادي قَوّ الفسيح، والذي كان يمر من خلاله متعرجاً وادي المندسّة على طول الجانب البعيد لجبل الأردام حتى منطقة السلامة الطينية المنبسطة الواسعة في اتجاه تيماء.

ومن هنا سرنا بصورة جيدة فوق أرض سهلة إلى معتدلة من الحجر الرملي، ونحن نقتفي أثر عجلات سيارة الشيخ عبد الله الشنيفي[1]، في رحلته لتولي إمارة تيماء قبلنا بشهور قليلة. وفي غالب الاحتمالات كان خالد السديري قد سار مؤخراً أيضاً في نفس هذا المسار بالاتجاه الآخر. وبعد حوالي سبعة أو ثمانية أميال من خيام عيضة، وصلنا قناة قَوّ في النقطة التي تنحني عندها من الغرب، ومن هناك فصاعداً التزمنا مجراها بصورة وثيقة تقريباً، حالياً على هذا الجانب وبعد حين على الجانب الآخر، باتجاه الشمال - الغربي على سطح مليء بالحصباء وغير مستو مع انتشار

(١) هو عبدالله بن إبراهيم الشنيفي تولى إمارة تَيماء في أول سنة ١٣٧٠هـ، كأول أمير سعودي لها. وكان قبلها أميراً على الدوادمي، كما عين أخوه عبدالعزيز أميراً على الخرج عام ١٩٤٩م.
وفي عام ١٣٨٤هـ تولى إمارة تيماء سليمان بن يوسف الشنيفي، واستمر أميراً لها حتى زيارة حمد الجاسر لها عام ١٣٩٠هـ. انظر: حمد الجاسر، في شمال غرب الجزيرة، ص٣٤٨.

معقول لشجيرات الرمث الجافة نوعاً ما، وبعد أن سرنا عدّة أميال عبرنا الحوض الرملي الوعر للوادي من على ضفته اليسرى، لنختصر اتساعه وانحداره عن جهة يميننا وبعد أربعة أميال من هنا يأتي مجرى الوادي على مسارنا مرة أخرى وينتشر في السهل الكثير من التلال الصغيرة هنا وهناك، وبالقرب من هذه النقطة توجد بئر قو (مشاش) على قناة الوادي وعلامتها البارزة تلة كحيل قو. وبعد ذلك بعشرة أميال التف مسارنا قليلاً إلى الشمال من الغرب مع اقتراب الوادي بجوارنا على اليمين، ولكن المنطقة كانت قفراً خالياً من أي علامات مميزة، على الرغم من أن مسيرنا كان سهلاً. وقد أصبحت تفاصيل جبل برد وصخوره ونتوءاته أكثر وضوحاً كلما اقتربنا منه.

وكانت قمة برد مسطحة ومربعة تماماً، بينما عن يمينها تقف صخرة مفصولة، مع صخرة أخرى صغيرة حادة الأطراف تظهر على البعد في الشمال. وأصبح السهل المنبسط بالتدريج أكثر تموّجاً، وكان السير فيه منتظماً وبسهولة ويسر على سطح من الحصباء. وبدأت تظهر أعداد من المعالم الجبلية والتلال على مسافة بعيدة عن يسارنا، وعندما قطعنا حوالي خمسة وثلاثين ميلاً من مخيم عيضة، عبرنا أول رافد للقو من اليسار، وربما يكون ذلك هو شعيب فارات وبعده فوراً أتينا على رافد آخر أكبر منه لنعبره وهو

شعيب هبير الذي يأتي أيضاً من تلال فارات في الشمال - الغربي لنا. وهنا وجدنا بعض الإبل ترعى على شجيرات طيبة إلى حد ما، وهي الرمث والرمرم والعذر، وفي حوض الرافد، كما في قناة قو نفسها، كان هناك عدد من أشجار الطلح الضخمة.

ونسير الآن بصورة ممتازة مسافة سبعة أميال على سهل من الحصباء الناعمة، وفيه، بجوار الطريق، مررنا على شجرتين كبيرتين من أشجار الطلح في أقسى مكان من الصحراء الجرداء. وكان جبل برد الآن يقع على الشمال - الشرقي منا، مع التلال الصغيرة التي تحيط به، في حين إلى خلفه كان يوجد جبل الوسك يمتد على شكل قوس قدره خمس وثلاثون درجة، ثم تل بارز آخر هو رُؤَاف[1] ويقع في الشرق تماماً، وإلى الغرب يمتد جبل عُرَيْضَة الطويل والمنخفض في جزأين اثنين يفصل بينهما ممر يسمى بُويب، والذي تمر منه قوافل الإبل المتجهة إلى العلا.

وبدأنا نقترب من المنطقة الوعرة التي تُطبق على حوض تيماء من الناحيتين الجنوبية والغربية، ولكن لا يزال أمامنا نحو اثني عشر ميلاً أخرى في سهل من الحصباء المسطحة اليسيرة، علينا أن نقطعها حتى نصل إلى الحافة الخارجية لبقعة وعرة من منطقة تسمى الحجيرين

(١) كما يمكن أن يرسم: رُواف.

بينما كانت قناة قوّ تبتعد عنا باستمرار عن اليمين لتهبط بصورة تدريجية سلسة إلى نهايتها في حوض السلامية الكبير. وكان اتجاهنا العام لا يزال نحو الشمال - الغربي باتجاه العديد من التلال والهضاب الصغيرة المستديرة من الحجر الرملي، وبعضها كان فيه تشكيلات مذهلة وغريبة الهيئة والتي كانت بمنزلة علامات بارزة وجيّدة في المنطقة بكاملها. وفي فترة العصر اعترضنا سرب كبير نسبياً من الجراد، وكان هذا أول سرب رأيناه منذ غادرنا المدينة، وكان يُمتع نفسه بالتهام الشجيرات في قنوات الصرف الكثيرة التي تقطع أو تسير على طول دربنا في وادي قو. كما كان هناك أيضاً الكثير من أشجار الطلح كاملة النمو في هذه البقاع المحظوظة، بينما كانت معظم الأعشاب من نوع الرمث.

وكنا لا نزال على بُعد حوالي ثلاثة أميال من حافة الحوض، عندما استدار الطريق، المميز بعلامات واضحة والذي كنا نسلكه، بصورة مفاجئة وحادة نحو الغرب. وقيل لي إن هذا كان هو الطريق الذي سلكه مؤخراً خالد السديري عند مجيئه من تبوك، ربما لتفادي تيماء وما يحيط بها من أراض وعرة. ونظراً لأن تيماء نفسها تقع إلى الشمال -الشمال- الغربي تقريباً فقد قررت، مع إذعان دليلي لذلك، أن نواصل السير في خط مستقيم عبر هذه المنطقة الوعرة في نفس الاتجاه على أمل أن نجد لنا طريقاً خلال الأحواض المتداخلة.

ومن حسن الحظ، كان الأمير الجديد لتيماء، عند ذهابه من حائل، قد التزم طريقاً قريباً من الجبال عن يميننا، ليخرج، بعد جهد وصعوبة، عند حافة حوض تيماء نفسه تحت مرتفعات جبل غُنيم البارزة، التي كنا نراها الآن أمامنا. وكان الجراد لا يزال كثيراً عندما دخلنا في منخفض محصور مليء بالشجيرات، قدنا فيه سيارتنا على هضبة غنيم، بينما كان جبل برد يقع الآن في الشرق تماماً. وبعد ذلك مباشرة تقريباً خرجنا منها لندخل في واحد من الأحواض العظيمة، تعرف باسم حفرة الجهراء وهنا وقعنا فعلاً في مصاعب جمة. لقد كانت حفرة حقيقية من الأرض الوعرة وبها أسطح متقطعة من الحجر الرملي المكشوف، مسطح أو مستدير برفق، على أرض من الرمال الكثيفة، المغطاة بكثافة بشجيرات الحمض، ومعظمها على نتوءات بارزة من الرمل لم تكن تسمح للاندروفر ومقطورتها بالسير.

وقد قاسينا من هذه العوائق مسافة ميلين حتى وصلنا مرتفعاً من الحصباء، لا لشيء إلا لنكتشف أن اللوري قد انغرز بصورة سيئة فعلاً وراءنا عند الحافة البعيدة للحوض، ومما زاد الطين بلة أن دليلنا هزاع بن سطام من أولاد علي كان قد فقد الاهتمام بما يجري حوله. لقد كان أداؤه طيباً حتى هذه النقطة، لكني لاحظت لبعض الوقت أنه أصبح أكثر هدوءاً وسكينة، ولم يعد يتكلم، ويميل أكثر إلى

الاقتضاب في إجابته عن أسئلتي، وفي ذلك الوقت كنت قد عرفت المنطقة المحيطة بنا وأسماء المعالم البارزة فيها معرفة جيدة، وأثناء سيرنا على امتداد سهل الحصباء الناعمة كنت أستطيع أن أقطع مسافة طويلة دون التوقف مراراً لأتبين معالم الطريق. والآن كل شيء مختلف، وأنا بحاجة في الحقيقة لإرشاده وتوجيهه، وعندما أعيد النظر فيما جرى لنا أجد أنه كان من واجبه بوضوح أن يقول لنا إن الأرض التي كنا على وشك أن ندخلها كان من المستحيل المرور فيها بعربة محملة، ولكنه لم يكن على طبيعته، وعندما توقفنا على بقعة الحصباء التي كنا بها انتظاراً للشاحنة حتى تخرج من أزمتها وتلحق بنا انهار هزاع في نوبة قشعريرة من الملاريا، مثل ورقة من أوراق شجر الحور الرجراج، وهو يتأوه ويتألم بيأس، فقلت إن أفضل شيء نفعله هو أن نجد مكاناً ملائماً لنقيم المخيم فيه، وبعد أن تركت اللوري ليلحق بنا، فقد واصلت السير مع مريضي.

وقد تقدمنا لما يزيد -تقريباً- عن ميل عندها سحبت المقطورة السيارة للتوقف، وعندما أخرجنا أنفسنا من الرمل، دون أي أخبار عن الشاحنة التي لم نكن نراها، قررت أن نعود ونخيم مع رفاقنا لأن الوقت كان قد أصبح متأخراً من فترة العصر، وقد وجدنا اللوري قادماً نحونا وتوقف فور وصوله عندنا حيث أقمنا مخيمنا في هذه البقعة، وقضينا الليل بأفضل ما نستطيع في هذه الحالة غير المنتظمة

والمربكة إلى حد ما في رقعة الحصباء المحاطة بالرمل الناعم ونتوءات الحجر الرملي الكبيرة البارزة من المناطق العارية في أرضية الحجر الرملي. وحولنا كان هناك عدد وفير من شجيرات الحمض اليانعة والأعشاب الأخرى، التي كان من الواضح أنها قد نالت كثيراً من المطر في الأسابيع الأخيرة. وقد وضعنا هزاعاً البائس على الفراش ليرتاح بعد جرعة قوية من الأسبرين، ولكن في وقت متأخر من الليل كان هو الذي يتحدث كثيراً حول نار المخيم، فمن الواضح أنه قد عوفي تماماً. وكانت السماء ملبدة بالغيوم الكثيرة الخفيفة خلال الليل، الذي كان معتدلاً تماماً مرة أخرى.

وبعد حوالي ثلاثة أميال في الصباح التالي أنهينا طريقنا خلال الحوض في متاهة من الممرات بين نتوءات الحجر الرملي محافظين بأقصى ما نستطيع على السير فوق الأرض الصلبة من الحجر الرملي، ومتفادين الرمل والشجيرات. وبعد ذلك وصلنا إلى أرض أشد ارتفاعاً وراء الحوض، وسرعان ما وصلنا إلى طريق السيارات، الذي كان من الواضح أنه يطوق بقعة الأرض الوعرة، التي قضينا فيها ما يربو على عشرة أميال كاملة من الاهتزازات والارتجاجات المستمرة. ويمتد الطريق الآن مسافة كبيرة على جبل يقسم حوض الجهراء عن حوض السمك وجمعها السُمك، والذي هبطنا فيه بعد حوالي نحو خمسة أميال. وكان حوض السمك شبيهاً من جميع

النواحي بحوض الجهراء، ولكننا الآن كنا نتمتع بمسار سيارات واضح المعالم والذي أدى بنا بعد خمسة أميال أخرى إلى الجانب البعيد من الحوض وطلعة حادة إلى هضبة من الحصباء، وكان السير عليها طيباً. وكانت تدور حول الأحواض أو تشكل ممرات من خلالها، وتلتف وتدور بطريقة مذهلة، ولا تخلو من رُقع الرمل الصعب لاسيما في حفر المسار، الذي كان متعرجاً.

ومن معسكرنا حتى النقطة التي خرجنا عندها من منخفض السُمك كنا نسير باتجاه الغرب تقريباً، بينما فور وصولنا إلى مسار السيارات كنا نتجه شمالاً - شمال - غرب، بينما تصبح مرتفعات غنيم الآن للشرق تماماً من الشمال. وكان منخفض السُمك مثل بحرٍ واسعٍ غائرٍ، وسهل الحصباء فيه يشكل شطاً واسعاً حول جانبيه الشمالي والغربي. وإلى مسافة بعيدة في الغرب يقع جبل جَبَلة الطويل المنخفض في اتجاه مدائن صالح، بينما في المنخفضات كانت النقاط البارزة هي جبل نصله المرتفع، وعلى البعد للجنوب من الشرق تقريباً يوجد جبل برد مع نتوء أو مسلة جبل السُمك المتقطع، والذي يبدو أنه يشكل العمود الفقري في هذه الأرض الوعرة.

ويلتف طريقنا الآن إلى الشمال، ممتداً حوالي ثمانية أميال على مجرى متعرج إلى أن وجدنا أنفسنا أمام تل العُقَيْلة الصغير، في الحوض إلى الشرق منا، مع بئر عند سطحه.

ومن الشمال -الغربي إلى الشمال- الشرقي، كان يمتد أمامنا سهل الجريداء العظيم الذي يرتفع ارتفاعاً تدريجياً، وتتناثر فيه هنا وهناك مجموعات من صخور الحجر الرملي المتكسرة والمنخفضة ذات الأشكال الرائعة (مثل المسلة والعصى والأعمدة) وتُعرف باسم غراميل الرولة. ولمسافة بعيدة خلفها، وفي جهة اليمين منها، كنا نستطيع رؤية جبل غنيم ممتداً باتجاه الشمال في أجزاء متقطعة من رأسه العظيم، مما يشكّل حافة عالية لحوض تيماء الحقيقي، الذي لم نكن نرى منه شيئاً بعد.

لقد ذكرتني هذه المنطقة من نواح كثيرة بمشهد وادي السرحان وأحواض الجوف وسكاكا. ومن خلال الفجوة بين جبل العقيلة بالقرب منا وغنيم بعيداً عنا، كنا نطل على قفرٍ خالٍ من أي معلم يمتد امتداداً هائلاً في الأفق البعيد.

وبعد أن قطعنا ما يربو قليلاً على ثلاثين ميلاً على طول الطريق، بدا أن هذه الصحراء الخالية من أي معالم قد انتهت في واد فسيح تحفه على الجانبين سلاسل جبال واضحة ومميزة وهي، الجزء الغربي من السُمك، ويليه أبيرق الحمض عن يسارنا، مع جبل غراميل الرولة وأعمدته على يميننا. هذا الوادي، وادي الجريداء يصّرف مياه الأرض المرتفعة أمامنا في حوض السمك، وطريق السيارات، الذي يمر به الآن، يمتد وسط مراعٍ طيبة، مزدهرة بسبب السيول الأخيرة.

وعندما تحولنا جانباً عن الطريق بضع لحظات لفحص مجموعة من أعمدة الغراميل، على أملٍ ضئيل أن نجد بعض النقوش عليها ولكن دون جدوى، فقد واصلنا سيرنا بين الجبلين في قناةٍ تضيق بالتدريج، والتي اتسعت مرة أخرى حوالي ميلين، وفي هذا الجزء فوجئنا برؤية خيمة وحيدة وسيارتين تقفان أمامها بالقرب من الضفة الأخرى للوادي. ونظراً لأنني لم أرد إضاعة الوقت في التحري عن قرب، فقد أرسلت مرافقنا في اللوري لرؤية من يكون مقيماً هناك، بينما ذهبت لأمسح المنطقة. وبعد ذلك فوراً رأينا الشاحنة تعود إلينا مصحوبة بسيارة أخرى، تُقّل عبد العزيز السديري، أخو خالد أمير تبوك، وهو نفسه أمير ما يسمى بالمناطق الشمالية ومقره في النبك بوادي سرحان. وقد جاء هنا لمقابلة بعض الأمراء السعوديين، المتوقع وصولهم بعد فترة وجيزة في تيماء، وكان يقضي الوقت في مخيم بالبر على الطريق الذي سوف يأتون منه آملاً في أن يجد شيئاً يطارده بسياراته. وكنت شغوفاً بأن أصل إلى تيماء قبل غروب الشمس، واعتذرت عن قبول دعوته الملحة لقضاء الليلة معه وجماعته.

وقد كنت أعرف عبد العزيز منذ أن قابلته أميراً -وكان صغير السن في ذلك الوقت- للجوف في عام ١٩٣٥م، أثناء عودتي أنا وزوجتي بالسيارة من إنجلترا عن طريق الساحل الشمالي لأفريقيا

ودمشق. وهو أخو حصة زوجة الملك كما أنه الثاني من ثمانية أولاد لأحمد السديري الشهير، وكلهم باستثناء الصغير يحتلون مناصب في ذاك الوقت كأمراء مناطق في المملكة العربية السعودية. وكان هو نفسه مسؤولاً عن منطقة الحدود الهامة عدة سنوات، وأحياناً كان يتكلم بتقدير عن جلوب باشا الذي كان يتصل به مراراً لتسوية حوادث الحدود. وفي عام ١٩٥٥م تم استدعاؤه من إمارة منطقته ليتولى وظيفة وزير الزراعة، ولكنه وافته المنية خلال شهر من وصوله جدة.

وأفضى بنا الوادي الآن في اتجاه شمالي - غربي إلى سلسة من المسطحات الطينية حوالي خمسة أميال تقريباً بعد ذلك، ومنها صعدنا بالتدريج إلى حافة سهل فسيح من الحصباء، ومنه بدأنا نرى سلاسل الجبال المختلفة، التي تشكل قوساً واسعاً يمتد تجاه تيماء من أقصى الغرب، ومن سوء الحظ أن هزاعاً كان يعلم فقط اسم واحد منها، وهو ضِبْع، وهو أحد الجبال إلى تيماء، ولم أعلم المزيد عنها إلا بعد مرور عدة أيام. ومن الطريف أن عبد العزيز قال لي إن اسم الأعمدة والمسلات التي كانت في طريقنا هو سرائب الكشل وليس غراميل الرولة، وربما يكون على حق، لأن الاسم الأخير يُطلق على مجموعة متشابهة ومثيرة للاهتمام كثيراً من أعمدة الحجر الرملي في أقصى الغرب على طول السكة الحديدية، والتي زرتها بعد ذلك بعدة سنوات.

إن وصولنا عند حافة السهل قد أزعج زوجاً من الغزلان حتى انطلق في سباق أمامنا، وخلاف ذلك كانت الصحراء جرداء لا أثر فيها للحياة. ومنذ وصولنا المسطحات الطينية كنا نتجه نحو الشمال ولكننا كنا نستطيع أن نرى لمسافة بعيدة خلفنا أثناء سيرنا بالنهار في اتجاه الجنوب - الجنوب - الشرقي. ولمسافة بعيدة نحو الشمال كان يبدو أن السماء تمطر بغزارة، بينما كانت الغيوم الرعدية قد بدأت تتجمع فوق جبل ضِبْع والجبال الأخرى، ولكننا واصلنا السير. وبعد حوالي ميلين أتينا على طريق متشعب عندما التقى طريقنا بطريق تبوك - تيماء الرئيس، الآتي من الشمال - الشمال - الغربي من خلال ثغرة في القوس الجبلي، والآن يتجه للشمال - الشرقي. وقد تراكمت السحب الكثيفة فوق جبل ضِبْع والجبل الذي عن يمينه، مع ريح قوية تهب من الجنوب - الغربي، تسوق عاصفة رملية أمامها نحو الشمال. وبعد ميلين التقينا بما بدا أنه أحدث خط لطريق تيماء - تبوك، وعلى طوله استدرنا نحو الجنوب - الشرقي، على هضبة غنيم بشكل أو بآخر.

ومن الطريق المتشعب نزلنا في واد واسع، به مسطح طيني طويل حوالي ميلين، يجري باتجاه حوض تيماء مع جبل ارتفاعه خمسون قدماً على الضفة اليسرى، بينما يمتد الجزء المرتفع من الهضبة. وواصلنا سيرنا بسرعة حيث إن العاصفة قد بدأت تتجمع حولنا،

وكانت السماء في الحقيقة قد بدأت تمطر، وبعد الغروب بقليل، ومواصلة السير نحو عشرة أميال وصلنا حافة حوض تيماء تحت جرفٍ عالٍ توجد فوقه أنقاض قلعة قديمة.

وكانت هذه القلعة تُعرف باسم منطر بني عطية وهنا قررنا أن نخيّم بأفضل ما نستطيع لقضاء الليلة، والريح القوية تهب علينا تحت سماء تنذر بالمطر، وقد أجبرني المطر الخفيف المتقطع على المبيت في السيارة الاندروفر، حيث أستطيع على الأقل أن أحافظ على جفاف ملابسي. وقد تمكن رفاقي من إعداد وجبة عشاء طيبة من لحم الضأن (هدية من عبد العزيز) والأرز، وفي أثناء انشغالنا بالطعام مرّت بنا مجموعة من أتباعه، كانوا في طريقهم إلى تيماء لمقابلة الأمير عبدالله بن فيصل، حيث توقفوا ساعة لمشاركتنا هذه الوليمة. وحدث أن عبد الله بن فيصل وصل شعيب هبير خلال النهار، وكان يخيّم هناك لقضاء الليل قبل دخوله إلى تيماء. وكانت وقفته السابقة في حفيرة الشملى، التي وصلها في يوم واحد من حائل، وبعد العشاء فوراً بدأ المطر ينزل بلطف، ولكن باستمرار، وفي منتصف الليل بدأ يهطل بغزارة، واستمر بصورة متقطعة مع زخات كثيفة منه حتى الفجر. ولابد أننا تعرضنا لبوصتين من المطر خلال الليل مما جعل كل شيء مبتلاً بالماء عند حلول الصباح لقد كان معنا خيام بالطبع، ولكننا نادراً ما كنا نجد أنه من الضروري نصبها لقضاء ليلة قصيرة.

وفي الصباح صعدت إلى القلعة المتهدمة، التي كان من الواضح أنها مركز لحرس حدود الواحة، على الرغم من أنها كانت فاخرة في جميع الأحوال. إن الطوب المصنوع من الجزء الرملي والمشذب تشذيباً جيداً يدل على أن بعض الجهد قد بذل لضمان راحة وأمن الحامية، ولكن المكان لم يكن مستخدماً منذ سنين طويلة، وكانت الجدران متهدمة، بالرغم من وضوح مخطط الأرضية تماماً والذي يتكون من غرفتين مربعتين بمساحة أربعين قدماً، ومتجاورتين مع بعضهما، ومتجهتين نحو الشرق لتطلا على الحوض، وفي كل طرف من الجهة الشرقية يوجد برج مستطيل، أو غرفة مراقبة مساحتها ٥ر٧ × ١٠ أقدام. وكانت القلعة تطل وتتحكم في الطريق الذي جئنا منه لتونا، واستمراره على طول سطح الجرف حوالي ميل في اتجاه شمال - شرقي.

وبعد ذلك كان الطريق ينحني شرقاً عبر الحوض نحو الواحة، بينما ينحني الجرف لليسار ليلتف حول المسطح الطيني الكبير، أو ما يعرف بالسبخة، التي يتجمع فيها صرف الحوض كله. وإلى الشمال - الشرقي، على مسافة من وراء الجرف، يوجد تل طويل سعيد البارز مع القلعة التي تقوم على حراسته، في حين على نفس حافة الجرف يرتفع تلاّن يطلق عليهما جال الملح (أي جرف الملح) يقع نخيل الواحة الطويل الذي يوجد في وسطها، ويميز موقع عينها

الشهيرة باسم هدّاج إلى الشمال قليلاً من الشرق. أما باقي الواحة فينتشر بدرجات متفاوتة على ناحيتي الشمال والشرق. ووراءها بمسافة بعيدة يمتد جبل الكتيب البعيد، مع خلفيته من رمال النفوذ، بينما في المقدمة من الشرق إلى الجنوب - الشرقي تقع المرتفعات المكونة لسلسة جبال غنيم. وبصورة عامة لم يكن هذا الموقع مؤثراً أو مثيراً للإعجاب بشدة بما يتناسب مع علامة شهيرة في التاريخ العربي القديم.

وعلى الرغم من هطول الأمطار فقد كان الليل معتدلاً، حيث كان الحد الأدنى لدرجة الحرارة ٥٥ درجة فهرنهايت. ومرت من فوقنا طائرة متجهة نحو الشمال في أثناء مواصلة سيرنا صباحاً، ولم يستغرق الممر منا وقتاً طويلاً حتى قطعنا ستة أميال أو ما يقرب من ذلك والتي كانت تفصلنا عن السد الذي يحمي واحة تيماء من أعدائها وسيولها.

وبعد حوالي ميل آخر وصلنا إلى بوابة قلعة الأمير عند الحافة الخارجية للقرية. ومن خيبر حتى حافة حوض الجهراء كنا قد قطعنا ٢٢٩ كيلومتراً، وفي هذه النقطة ربما كنا على بُعد حوالي ٣٠ كيلومتراً من تيماء في خط مباشر إلى الشمال - الشمال - الغربي، ويصل طوله ٢٦٠ كيلومتراً تقريباً. بيد أن دربنا قد أخذنا عبر الأراضي الوعرة القاسية حوالي ١٧ كيلومتراً حتى التقينا بما كان في

ذلك الوقت الطريق الطبيعي، الذي كان يلتف حول الأحواض لضعف هذه المسافة تقريباً، ومن تلك النقطة كنا قد سرنا ١١ كيلومتراً حتى نصل إلى تيماء.

لقد سافرنا ٣٥٧ كيلومتراً، وقد دخلنا تيماء من الناحية الجنوبية - الشرقية، ولكننا جئنا إليها في الحقيقة من الشمال - الغربي، أو ما هو عكس اتجاه البوصلة !!. لقد قطعنا في الواقع ٦٥٧ كيلومتراً من المدينة، على الرغم من أن المسافة الحقيقة، طبقاً لحسابي، لم تكن تزيد على ٤٢٨ كيلومتراً، أو ٢٧٤ ميلاً. وكان دخولنا تيماء في يوم ٤ يناير ١٩٥١م، وخرجنا منها في ١٣ منه لإنجاز المرحلة التالية من جولاتنا.